

# الظن السابعة:



﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (١٣٦) .

ذهب البعض خطأً منهم إلى أن المقصود من هذه الآية هو أن النبي ﷺ سوف يأتي بشيء آخر بخلاف القرآن اسمه السنة ، أو البيان ، أو الحديث ، ليكون المعنى النهائى عندهم هو :

وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس بالسنة (أو بالبيان) ما نُزِّلَ إليهم !  
وعليه فيكون القرآن عند هؤلاء غير مبين وحده ، وإنما يلزم حتماً وجود البيان الإضافى لكى يصير مفهوماً . ولبيان عدم صحة ما قالوه ، وأن معنى الآية بخلاف ما ذهبوا إليه نقول :



## الحقيقة الأولى : الكتب هو المبين



فنحن إذا ما تأملنا الآية المذكورة فسنجد أن معنى التبيين يترجح ما بين أن يكون من الإظهار ، أو أن يكون معناه هو التوضيح .

فأما الإظهار فهو مستبعد ، والأقرب هو أن يكون التبيين بمعنى التوضيح والتفصيل . وهذا التبيين بمعنى التفصيل إما أن يكون متعلقاً بالذكر أو يكون متعلقاً بالنبي ﷺ وفداه نفسى .

١٣٦ - سورة (١٦) النحل : ٤٤ .

أى إن التبيين قد يكون بسبب نزول الذكر مشتملاً على كل التفصيل ، وبالتالي يكون قد نزل على النبي ليبين به للناس ما نُزل إليهم .

أو يكون الذكر قد نزل به إبهام ، أو فيه غموض ، فيحتاج إلى من يُبينه ، وهو الرسول الكريم . F

والفصل في معرفة هذا الأمر الهام الذى سترتب عليه وجود أو عدم وجود بيان غير القرآن يكمن فى البيان نفسه .

فلو كان الذكر هو المبيّن فسنجد فى بيانه (عموماً) بيان لهذه القضية الهامة ، أما لو كان الذكر مبهم ويحتاج إلى بيان منفصل فلن نجد فيه البيان لقضيتنا هذه ، وإنما سيكون ما نحتاجه من إجابة لأسئلتنا فى هذا البيان المنفصل .

والحق أن الكتاب لما كان تفصيل كل شيء فقد فصل وبسط هذه القضية بشكل واسع ، ولبيان ذلك فسنتعقب بعض الآيات الدالة على قولنا هذا :

فعندما قال تعالى :

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ :

قاله فى الآية الرابعة والأربعين من سورة النحل ، وقد سبق سبحانه قوله هذا بكلام دقيق ينبغى عرضه لنعرف مفهوم الآية ، يقول تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ \* بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

والناظر بتدبر يجد أن الله تعالى يقول للذبي ﷺ إنه أرسل قبله رجالاً أوحى إليهم سبحانه بالبينات والزرير وهو عطف لا يقتضى التغيرات كما يتوهم البعض ، كما إنه لا يعنى وجود شيء بخلاف الكتب التى أنزلها الله تعالى ، وإنما هو كتأكيد للفت الانتباه إلى أن هذه الزُّبُر (الكتب) حوت البينات المطلوب توصيلها للناس ، وكله بالوحى الموحى للرجال المنزل عليهم هذا الوحى ، وذلك كقوله تعالى عن عيسى ﷺ :

﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ (١٣٧) .

ومعلوم أن الكتاب مقصود به التوراة والإنجيل ، وعرفنا سابقاً أن الحكمة من الكتاب ، فيكون المعنى هو أن عيسى ﷺ تعلم الكتاب وهو التوراة والإنجيل ، وتعلم ما فيهما من حكمة . وإنما قصد تعالى إيراد الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل بالعطف الذى يبين مضامين الكتاب الذى تعلمه عيسى ، واللام في الكتاب للجنس ، والعطف من قبيل ذكر الفرد بعد الجنس لأهميته في اختصاصه بالذكر .

إذن فقول الله تعالى (بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ) لايعنى أنه سبحانه أرسل قبل الرسول رجالاً أوحى إليهم كتباً مجملة ، وأوحى إليهم بالبينات منفصلة .

وبالتالى نستطيع فهم قوله ﷺ :

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (١٣٨) .

١٣٧ - سورة آل عمران : ٤٨ .

١٣٨ - وقد ذهب إلى أن معنى الآية يعنى أن البيان منفصل عن الكتاب الأستاذ إسماعيل منصور بكتايبه : تبصير الأمة بحقيقة السنة (المقدمة العامة ص١٢ ، والخاتمة ص٦٥٣ - ٦٦٦) ، وفتح الوهاب لا جزية على أهل الكتاب (المقدمة ص١٦) ؛ **فجانبه التوفيق** بهذه النقطة كما ظهر من تناول الآيات السابقة وسيظهر هنا .  
وذهب به هذا المذهب إلى القول بأن البيان المذكور يمكن أن يصل بعد الدراسات المكثفة إلى عدد لا يتجاوز الخمسين حديثاً . وهو ضرب من الأوهام ، **وافتنات على الكتاب** أعتقد أنه لا يقصده ، فديده فى كتبه الاستدلال بالكتاب ، وأوبته تجعله أقدر على استدراك خطأه . وهذا لا يمنع من أن كتابيه فيهما فوائد كثيرة ، مع الانتباه لهذه الزلة - وكلنا نخطئ - إضافة لكونه ذكر فى نفس الصفحات أن البيان لا يعنى كونه تشريعاً مستقلاً .

على أن المنزل على النبي فيه البيان الكافي ، وإنه بنزوله أصبح في وسع النبي وفداه نفسه أن يبين للناس به ما نُزِّل إليهم ، فعلة البيان هي الذكر . وموصل ومبلغ هذا البيان للناس هو النبي الكريم ﷺ ويؤكد ذلك أن نستمر في استعراض آيات الكتاب المبين الذي قال عنه سبحانه :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (١٣٩) .

### الحقيقة الثانية : الكتاب هو المبين

يقول تعالى بنفس السورة :

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (١٤٠) .

فوضح سبحانه هنا :

١ - أن المُنزَّل على الرسول ﷺ هو نفسه مُبَيَّن ومُبَيِّن .

٢ - وأن فيه كل البيان لكل ما يحتاج إلى بيان .

وعلى ذلك يتنزل المعنى في الآية التي اعتزى بها القوم :

الرسول نزل عليه الكتاب تبليغاً لكل شيء .

وأنزله الله ليبين للناس به ما أنزل إليهم .

ورسول الله عليه البلاغ : ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ (١٤١) .

وعلى ذلك فإن إبلاغ المُبَيِّن المُبَيِّن يُعتبر تبليغاً ، وفي نفس الوقت يُعتبر تبليغاً !!

١٣٩ - سورة (١٣) الرعد : ٢٨ .

١٤٠ - سورة (١٦) النحل : ٨٩ .

١٤١ - سورة (٥) المائدة : ٩٩ .

وذلك كما لو أعطينا شخصًا ما ملفًا به تفاصيل بعض الأعمال المطلوبة من أشخاص غيره أن يقوموا بتنفيذها . فلو قام هذا الشخص بإبلاغ الآخرين بهذه التفاصيل فيمكن أن نقول :

- إن هذا الشخص قد بلغ هؤلاء الآخرين .
- كما يمكن أن نقول إنه فصل لهم المطلوب منهم عمله ، برغم أن التفصيل كان من الملف الذى تم تسليمه له !

والآيات التى توضح أن الكتاب فيه التفصيل والبيان كثيرة جدًا ، نذكر منها هنا :

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ (١٤٢) .

ما يدل على أن الكتاب أنزل مفصلاً لا يحتاج لغيره معه ليحدث التفصيل المطلوب .

ونفس الشيء فى قوله تعالى :

﴿ الرِّيبَةُ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (١٤٣) .

وكذلك فى قوله تعالى :

﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٤٤) .

وكذلك فى قوله تعالى :

﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (١٤٥) .

١٤٢ - سورة (٦) الأنعام : ١١٤ .

١٤٣ - سورة (١١) هود : ١ .

١٤٤ - سورة (١٢) يوسف : ١١١ .

١٤٥ - سورة (٤١) فصلت : ٣ .

وقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٤٦) .

وكذلك فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٤٧) .

وعلى ذلك فيمكن أن نصل إلى المعنى الصحيح للآية فى ظل بقية نصوص الآيات كالتالى :

**وأُنزِلنا إليك الكتاب المفصل والذي فيه تفصيل وتبيان كل شيء لتبلغه للناس ؛ فتكون ببلاغك إياه قد بينت لهم به ما نُزِّل إليهم من ربهم !**

ولو طالعنا قول الله تعالى بنفس السورة (النحل) :

﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٤٨) .

فسنجد أن الكتاب هو الذى سيبين المختلف عليه . ويؤكدده أكثر وأكثر قوله تعالى :

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ (١٤٩) .

إذن فالبيان بالكتاب ، والمبين هو النبى ﷺ بإبلاغه له ، وليس كما يزعم القوم أن هذا الكتاب يحتاج لأحاديث الرواة (وليس النبى ﷺ بالطبع) ليتمكن فهمه والعمل به !

وعندما قال ﷺ :

١٤٦ - سورة (٧) الأعراف : ٥٢ .

١٤٧ - سورة (١٠) يونس : ٣٧ .

١٤٨ - سورة (١٦) النحل : ٦٤ .

١٤٩ - سورة (٢) البقرة : ٢١٣ .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ ﴾ (١٥٠) .

لم يقل أحد إن الذين أوتوا الكتاب سيبيئون به غيره !  
أو إنهم سيزيدون عليه !

أو إنهم سيكون لهم سنة يبينون بها الكتاب !

● وإنما الصحيح أن كتب الله تعالى كلها اتصفت بهذه الخاصية ،  
وهي كونها مفصلة ، ومبينة :

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ  
وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَلْقَاءُ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٥١) ، و :

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ  
فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ (١٥٢) .

● ومن ذلك قول الله تعالى بعد أن فصل المحرم من الطعام بكتابه :

﴿ وَمَا لَكُمْ إِلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ  
عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾ (١٥٣) .

الذى يتضح منه أن المحرم مُفَصَّل بالكتاب !

● وقد زحرت آيات القرآن بالبيان تلو البيان ، ثم تنتهي الآيات  
بتنبيه الناس إلى أن هذا التفصيل هو من بيان القرآن ، مثل قوله تعالى :

﴿ لَآ يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ  
فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ  
رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا

١٥٠ - سورة (٣) آل عمران : ١٨٧ .

١٥١ - سورة (٦) الأنعام : ١٥٤ .

١٥٢ - سورة (٧) الأعراف : ١٤٥ .

١٥٣ - سورة (٦) الأنعام : ١١٩ .

أَيْمَانُكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٥٤﴾ .

وقوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ \* وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥٥﴾ .

ولن نستطرد في بيان هذه الحقيقة الواضحة لكل من يعقل ، وبلغه الكتاب ، ونكون قد فهمنا بالتالي أن بلاغ الرسول ﷺ بالكتاب المبين هو تبیین في نفس الوقت ، ويتسق فهم قوله تعالى :

﴿ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ .

مع قوله تعالى :

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ .

مع قوله تعالى :

١٥٤ - سورة (٥) المائدة : ٨٩ .

١٥٥ - سورة (٢٤) النور : ٥٨ .

وعلى نفس نمط الآيات السابقة يمكن فهم العديد من الآيات التي تدور حول نفس الموضوع ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ [البقرة ١٥٩] . ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا بِاِكْلَانِ الطَّعَامِ أَنْظَرُ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظَرُ أَنِّي يُؤْفِكُونَ ﴾ [٧٥ المائدة] . ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ [١ يوسف] . ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴾ [١ الحجر] . ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [٣٤ النور] . ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾ [٦٩ يس] . ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ [١٨٥ البقرة] .



﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ .

مع قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ ﴾ (١٥٦) .

وعلى ذلك فيمكن القول (دون التأثر بحكايات القوم) :

إنه لولا الذكر لما كان هناك تبیین ، ولولا تبليغ الرسول له لما كان هناك تبیین أيضاً .

ويعمق هذا الفهم الصحيح للآية إنه لم يُقل ولا مرة واحدة :  
" وأرسلناك لتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ " ، أو : " وأرسلناك لتبیین لهم الذى اختلفوا فيه " .

